ثقافة المخطوط قراءة في فهرس مخطوطات الجامع الكبير بمدينة مكناس

إعداد الفهرست: عبد السلام البراق

قراءة وتقديم

إبراهيم بورشاشن

يطمح هذا العرض أن يقدم لفهرسة مخطوطات خزانة الجامع االكبير بمكناس وهو الفهرس الذي وصف لنا مخطوطات الخزانة، فمن ذكر للعنوان ثم ذكر للمؤلف ثم ذكر لبداية المخطوط ولنهايته، ثم يذكر عدد أوراقه، وعدد اسطره، وقياس طوله وعرضه، وكذا نوع خطه وشكله وحبره ولونه، وتاريخ الفراغ من تأليفه إن وجد، ثم يذكر بعد تاريخ نسخه واسمه ناسخه إن ذكر، مع تسجيل للمصادر والمراجع، وإن عرض للمخطوط عارض من بتر أو خروم أو غير ذلك مما يلحق المخطوطات نبه عليه، مع العلم أن الفهرس الجديد عكس الفهرس القديم يتميز بترتيب جميع مخطوطاته. ثم بعد ذلك يذكر ناسخه ونوع الخط الذي كتب به لينتهي بذكر المحبس إن كان معروفا مع تاريخ التحبيس والمكان المحبس عليه أيضا إذا كان معروفا، وكذا الحائزين له من النظار.

وقد تميز هذا الفهرس فهارس صنفها حسب عناوين المخطوطات والمؤلفين والمحبسين والنساخ والمصادر وكذا الموضوعات التي تناولتها المخطوطات؛ من المصاحف والقراءات والتفسير والحديث والسيرة النبوية والتوحيد والتصوف والأوراد والأذكار والفقه والفرائض والنوازل والأصول والنحو واللغة والبلاغة، والمنطق، والأدب، والتاريخ، والتراجم والتوقيت والحساب والمعاملات وعلوم مختلفة أدرج فيها ما استعصى عليه في التصنيف. وهذا الكتاب يفتح شهية لـ"ثقافة المخطوط". وقد حاولت انطلاقا من هذا العمل العلمي المتميز وأعمال علمية أخرى بيان معالم عامة لثقافة المخطوط هذه.

Cet exposé tend à présenter un sommaire aux manuscrits que contient la bibliothèque de la Grande Mosquée de Meknès . UN sommaire qui décrit ces manuscrits en précisant : l'adresse ,l'auteur ,le début et la fin du manuscrit ,le nombre de pages ,le nombre de lignes ,les mesures des longueurs et des largeurs .Puis ,il précise le genre d'écriture ,la forme ,la couleur et le genre d'encre utilisée . Ce sommaire cite aussi la date à laquelle on a achevé l'écriture du manuscrit si elle existe ; la date à laquelle on l'a copié et celui qui l'a fait .En enregistrant les sources et les références et en avertissant au cas où une partie du manuscrit aurait été tronquée ou détériorée . Sans oublier que le nouveau sommaire est mieux que l'ancien puisqu'il classe et répertorie clairement les manuscrits . Puis on cite celui qui a fait la copie et le genre d'écriture utilisée et le nom de celui qui a fait don du manuscrit ,s'il est connu ,la date à laquelle il a été octroyé et le lieu où l'action a été faite ,et même ceux qui en bénéficient. Ce qui distingue ce sommaire des autres ,c'est le fait d'englober plusieurs autres sommaires qui répertorie les manuscrits ,les auteurs ,les donateurs des ''habous'',les auteurs des copies ,les sources ainsi que les sujets abordés inspirés du coran ,des lectures ,des interprétations ,du hadith ,de la vie du prophète (paix et salut sur lui),l'unicité ,le soufisme ,les prières dites quotidiennement ,le fikh ,les devoirs à accomplir ,les origines ,la grammaire ,la rhétorique ,la logique ,la littérature ,l'histoire ,les traductions ,l'arithmétique et Diverses sciences où l'on a classifié ce qui peut causer une difficulté . Ce livre ouvre l'appétit à la lecture et encourage « la culture du manuscrit ». J'ai essayé par le biais de ce

travail scientifique exceptionnel et d'autres travaux scientifiques ,de d'intérêt qui ont trait à cette culture de manuscrit. sites montrer des

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أول شعور يخامر المرء وهو يغلق دفتي الكتاب الذي أعده الأستاذ عبد السلام البراق والمتعلق بفهرسة مخطوطات خزانة الجامع الكبير بمكناس[1]، بعد الارتياض فيه، رغبة جامحة في تفحص مخطوطات الخزانة والموزعة بين مخطوطات المصاحف والقراءات والتفسير والحديث والسيرة النبوية والتوحيد والتصوف والأوراد والأذكار والفقه والنوازل والأصول واللغة والنحو والبلاغة والمنطق والتاريخ والتراجم والطب والتوقيت والحساب والمعاملات وأخيرا ما سمي بعلوم مختلفة. والناظر في هذا الفهرست يكشف عن غنى الثقافة المغربية من جهة وعن حدودها من جهة أخرى، غنى في العلوم النقلية الوضعية كما أسماها ابن خلدون وفقر في العلوم النظرية وهو ما يطرح سؤالا حول سبب هذه الظاهرة التي سترجعنا إلى البحث في المجال الاجتماعي – الثقافي وهو ما يخرج عن حدود هذا المساهمة. وقد تحدث اليفراني عن هذه الخزانة وذكر انه قد جمع فيها من كل فن ما يحير العقول، مما يدل على أن هذه الخزانة قد نهبت وقد أفاض سي عبد السلام في هذه النقطة في طبعته الجديدة للفهرست.

لقد وصف لنا السيد عبد السلام البراق، الذي يعتبر أول مفهرس للخزانة المكناسية، مخطوطات كثيرة تفنن في عرضها مقتفيا في ذلك أحدث أساليب الفهرسة الحديثة ما وسعه ذلك حتى لكأن بعضها رأي عين، فمن ذكر للعنوان إن كان معروفا والمجهول منه قليل، ثم ذكر للمؤلف إن كان معروفا كذلك والمجهول منه نادر، كل ذلك بعد المجهود الشاق الذي قام به المفهرس حتى إن الفهرس الجديد يخلو من الخروم ويكاد يخلو من المجهول. ويترجم المفهرس للمؤلف إذا كانت ترجمته متوفرة، ثم ذكر لبداية المخطوط ولنهايته، ثم يذكر عدد أوراقه، وعدد اسطره، وقياس طوله وعرضه، وكذا نوع خطه وشكله وحبره ولونه، وتاريخ الفراغ من تأليفه إن وجد، ثم يذكر بعد تاريخ نسخه واسمه ناسخه إن ذكر، مع تسجيل للمصادر والمراجع، وإن عرض للمخطوط عارض من بتر أو خروم أو غير ذلك مما يلحق المخطوطات نبه عليه، مع العلم أن الفهرس الجديد عكس القديم يتميز بترتيب جميع مخطوطاته. ثم بعد ذلك يذكر ناسخه إن كان معروفا كذلك، ونوع الخط الذي كتب به لينتهي بذكر المحبس إن كان معروفا مع تاريخ التحبيس والمكان المحبس عليه أيضا إذا كان معروفا، وكذا الحائزين له من النظار.

وقد تفنن صاحب الفهرس في نقل مهارة النساخ في كتابة المخطوط حتى حرك في نفوسنا الشوق لرؤية بعض المخطوطات تلبية لحاجة جمالية ليس غير، فضلا عن إضاءات كانت متعلقة بمخطوط مخطوط أو كانت تتعلق بالعمل كله والتي تجشم إضافتها سواء في المتن أوفي آخر المؤلف ليهدي بها سبل "السالكين" من الباحثين.

وقد تميز هذا الفهرس بهذا العمل الجليل الذي ختم به السيد عبد السلام فهرسته، حيث قام بعمل فهارس صنفها حسب عناوين المخطوطات والمؤلفين والمحبسين والنساخ والمصادر وكذا الموضوعات التي تناولتها المخطوطات؛ من المصاحف والقراءات والتفسير والحديث والسيرة النبوية والتوحيد والتصوف والأوراد والأذكار والفقه والفرائض والنوازل والأصول والنحو واللغة والبلاغة، والمنطق، والأدب، والتاريخ، والتراجم والتوقيت والحساب والمعاملات وعلوم مختلفة أدرج فيها ما استعصى عليه في التصنيف.

إن عمل السيد البراق هذا يفتح شهية الباحث إلى عالم المخطوطات الذي هو عالم مستقل الذات تأسست حوله "ثقافة المخطوط". وسأحاول انطلاقا من هذا العمل العلمي المتميز وأعمال علمية أخرى، كتبها على الخصوص فضيلة الأستاذ المحقق الدكتور أحمد شوقي بنبين، بيان معالم عامة لثقافة المخطوط هذه، لأقف أخيرا عند بعض الظواهر التي استرعتني وأنا أتجول في رحاب هذا المؤلف.

1. ما هو المخطوط؟ يقول صاحبا كتاب "معجم مصطلحات المخطوط العربي" : المخطوط هو "الكتاب الذي كتب باليد. مصطلح حديث ظهر مع ظهور الكتاب المطبوع manuscrit"[2]. وللأستاذ أحمد شوقي بنبين مقالة نشرها في الطبعة الثانية من كتابه "دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي"[3] وأعاد نشرها في أحد أعداد مجلة دعوة الحق تغني في هذا المجال. أما الثقافة فأقصد بها هنا كل ما تأسس حول المخطوط من مؤسسات ومواد ورجال ومكتوب وفنون وعوارض وغير ذلك. وسأقف عند بعض من معالم هذه الثقافة لاستجلائها على ضوء عمل الأستاذ عبد السلام البراق.

أولا : عن المؤسسات

لا يمكن الحديث عن المخطوط دون الحديث عن الخزائن التي احتضنته "والتي اعتبرت مؤسسات حافظة للحضارات"[4] تميزت في تاريخ المغرب بالغنى والتنوع، وحتى لا يشرد بنا الحديث هنا أتساءل: ما المؤسسات التي عرضها لنا فهرس مخطوطات خزانة الجامع الكبير؟

عرض لنا الفهرس مخطوطات خزانة كبرى هي خزانة الجامع الكبير بمكناس وهي الخزانة التي تضرب في جذور التاريخ المغربي وتحوي نفائس[5]، وقد قدم لنا السيد البراق في مقدمته للطبعة الثانية الفهرس معالم تاريخة وثقافية هامة حول هذه الخزانة المكناسية العتيقة. ولعل مصدر كثير من هذه الخزانة خزانة الزاوية الدلائية التي استولى عليها السلطان المولى الرشيد ف"اصطفى بعض كتبها لنفسه ووقف بعضها على جامع مكناس، وفيها عشرة آلاف سفر" كما يذكر الشيخ الكتاني[6] الذي زار الخزانة وتحسر على الإهمال الذي لحقها حتى أخنى عليها الدهر وعشش فيها الدود[7].

ومن المؤسسات التي ارتبطت بالمخطوطات "المساجد" و"الزوايا" و"المدارس"، وقد أدخلنا السيد عبد السلام إلى بعض مساجد مدينة مكناس وأحيانا إلى بعض مساجد المغرب وزواياه وعرفنا بها بمناسبة بعض المخطوطات التي حبست عليها: فمن المؤسسات التي تعرفنا عليها في الفهرس روضة سيدي أحمد بن خضراء[8] ومسجد الغندور[9] والمسجد الأعظم بمكناس ومسجد حي الرياض العنبري وهو الحي الذي محي من خريطة مكناس لأسباب سياسية[10] ومسجد باب بردعين[11] ومسجد النجارين[12] ومسجد صابط بن زغبوش المعروف حاليا بجامع الصابة والواقع حاليا بين حمام سيدي ملوك ودرب العبادسة13، ومسجد سيدي اليابوري[14]، ومسجد تاغزوت[15] ومسجد أبي العباس السبتي بمراكش[16] ومسجد رياض أبي العباس السبتي[17] وخزانة الجامع بجوار ضريح أبي العباس السبتي بمراكش[18] ومسجد قصبة الرباط[19]، وضريح المولى إدريس[20]، وجامع المحمدية بتارودانت[21]. ومن المدارس : مدرسة سيدي مصباح بفاس[22] والمدرسة الجديدة بمكناس البوعنانية [23]. كما ارتبط بالمخطوط طلبة العلم[24] والمثقفين عموما[25].

ثانيا: عن المواد

المخطوط في ذاته قطعة مادية، وقد أدى الانتباه إلى هذه الظاهرة وفحصها إلى ظهور علم جديد هو علم المخطوط أو الكوديكولوجيا، وتجولنا في الفهرست أوقفنا على بعض المواد التي كانت صناعة المخطوط وراء نشوئها وازدهارها، من مثل الورق الذي يكتب عليه والقلم الذي يكتب به والخط الذي يرسم به والتلوين الذي يزين به؛ وسأقف هنا عند الورق والمداد والخط؛ = عن الورق يذكر صاحب كتاب "تاريخ الخزائن في المغرب" أن مادتين للكتابة استعملتا في المغرب؛ الجلد أو الرق الذي هو من أصل حيواني والورق الذي هو مادة نباتية وابتداء من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي سيحل الكاغد محل الرق "ومع ذلك بقي الرق مادة للكتابة

وخصوصا كتابة المصاحف إلى القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي"[26] ، والفهرست الذي نحن بصدده نجده يقدم وصفا لورق مخطوطات الخزانة مرتين أو ثلاث عندما يتحدث عن قطعتين من المصحف الشريف مكتوبتين على رق الغزال[27]؛ والمعروف أن الرق هو جلد حيوان تمت معالجته بالتجليف والدباغة وصار صالحا للكتابة، وهناك من حصر الرق في نوع معين من الجلد كجلد الغزال مثلا، وقد كان رق الغزال هو الرق الذي كانت تنسخ فيه المصاحف القرآنية بالخط الكوفي في القرون الإسلامية الأولى كما يقول صاحبا معجم المصطلحات[28]. وخزانة الجامع الكبير، كما أعلمنا ذلك الأستاذ البراق، تحوي قطعتين من المصحف الشريف يرجع تاريخ كتابتهما إلى عهد الدولة الموحدية[29] أو إلى عهد أبعد كما ذكر لي في جلسة خاصة، كما يذكر لنا الفهرست مخطوطين كتبتا على الورق العادي المدرسي (الدفتر)[30].

أ = المداد

تنوع المداد الذي كانت تكتب به المخطوطات إلى درجة أن الكتب في عهد السعديين كانت تكتب بماء الذهب عوض المداد أو تكتب بالعنبر المرشوش بماء الورد وينشف بواسطة التبر عوض التراب كما يخبرنا صاحب كتاب خزائن الكتب[31]، فنحن هنا أمام مواد رفيعة في الكتابة، والفهرست الذي بين أيدينا يشير مرتين إلى مادة كتب بها مخطوط ويسميها ماء السواك أو السمق المغربي[32]، وهي مادة كانت وبالا على المخطوط المغربي، كما يبدو على الخصوص في مخطوط "سنن الترمذي: في الحديث الشريف يوجد في مجموع كما ذكر لي الأستاذ البراق، كما يذكر لنا المفهرس مخطوطا كتبت تراجمه بماء الذهب[33].

ب = الخط

يحرص السيد البراق على العناية بوصف الخط الذي كتب به المخطوط، والناظر في الفهرست يجد غنى في الخطوط، وكذا غنى في الأوصاف التي خلعها مؤلفه على هذه الخطوط التي نجدها تتوزع بين الخط المغربي والخط المشرقي والخط الأندلسي والخط الكوفي؛ فقد حرص صاحب الفهرس على وصف الخط الذي رسم به المخطوط بأوصاف يحرص بها على الموضوعية الكاملة وتبين بعضها درجات من هذا الخط ومراقي فيه؛ فمن الصنف الأول نجد عبارات كثيرة من مثل: "خط مغربي متنوع"، "خط مغربي مجدول بالأحمر والأصفر"، خط مغربي مجدول باللون الأحمر مع كتابة الرؤوس بالأحمر والنيلي"، "خط مغربي مع كتابة المتن باللونين الأحمر والنيلي"، "خط مغربي مع كتابة المتن بالأحمر"، "خط مغربي رقيق"، "خط مغربي مبسوط"، "خط مشرقي مع

كتابة تراجمه بالأحمر"، "خط كوفي متنوع"، "خط مغربي مع كتابة المتن بالأحمر"، "خط مشرقي مجدول باللون الأحمر"، "خط مغربي مع كتابة الأبواب باللونين الأحمر والأزرق"، "خط أندلسي مع كتابة الأبواب بالأحمر والأزرق"، إن هذه الأوصاف وكثير غيرها في الكتاب تبرز مدى الدقة التي حرص بها السيد البراق على وصف الخطوط وإن كانت هذه الخطوط تقدم لنا مادة جمالية.. هناك أيضا أوصاف أخرى يعج بها الفهرس وهي أقرب إلى أحكام القيمة تبرز مستويات من هذه الخطوط ودرجات بينها فمن هذه الأوصاف نجد :"خط مغربي وسط"، "خط مغربي لطيف"، "خط مغربي جميل"، "خط مغربي جميل مشكول"، "خط مغربي رديء"، "خط مشرقي نظيف"، "خط مشرقي جيد" "خط مغربي بسيط"، "خط أندلسي جيد"،خط مغربي جميل وملون" وغير ذلك من الأوصاف...

إن تأملنا في الخط العربي كما بسطه أمامنا هذا الفهرست يقودنا إلى التعرف على الخط الذي كتبت به المخطوطات. وإذا كان الخط هو أي شيء كتب باليد كما يقول صاحبا معجم المخطوط العربي34 فإننا أمام أنواع مختلفة من الخطوط وهي كما يعرضها الفهرست أربعة أنواع؛ المغربي والأندلسي والمشرقي والكوفي، أما المغربي فهو الخط الذي عرفه المغرب في عهد المرينيين ويذهب ابن خلدون إلى أن أصله هو الخط الأندلسي35 والخط المغربي يتميز عن الخطوط المشرقية في شكله وفي نقط حروفه وهو على العموم خمسة أنواع: المجوهر وهو خط الوثائق، والمبسوط وهو خط المصاحف، والزمامي والكوفي الذي تمتاز حروفه بالاستقامة ويتخذ للزخرفة والزينة 36، والثلث الشرقي37 أما الأندلسي فـ"هو خط من أصل كوفي اعتمده عرب اسبانيا" 38 والخط المنسوب وهو الخط الذي تقارن نسب حروفه بمقاييس ونسب الألف.

يعرض لنا الفهرست مجموعة من الألوان التي تزين بها الكتب، وهي عادة ما تكتب بها الأبواب والفصول ورؤوس الكلام[39]، وتقدم لنا الكتب المتخصصة في هذا المجال ألوان الحبر القديمة التي كانت تستعمل في التزيين وهي ثمان، اللون الذهبي واللون اللازوردي واللون الياقوتي واللون الفستقي والزنجفر الأحمر واللون الأحمر واللون الأزرق واللون القهوائي[40]. وإن تفحصنا في الألوان الحاضرة في الفهرست يوقفنا على اللون الأسود واللون النيلي و"النيلة مادة صبغية كان يغمس فيها الورق لكي يصبح أزرق"[41]، واللون الأزرق، واللون الأصفر واللون الأخضر، وفي الفهرست الذي أتحفنا به الأستاذ البراق نجد آيات الكتاب العزيز أو متن المخطوط عموما تكتب بالأحمر[42] ويشكل أحيانا باللون الأحمر ورؤوس السور بالأزرق[43]، وأحيانا يشكل باللونين معا[44] ،

وأحيانا يكتب المتن باللونين الأحمر والأزرق[45] ، وأحيانا يكتب اسم الجلالة باللونين الأحمر والأخضر[46] وأحينا تتخذ الألوان للجدولة فيجدول بالأحمر[47] كما يجدول بالأصفر[48]ويجدول بالأزرق والأخضر[49]، كما يتخذ لشرح المفردات المداد الأحمر[50]ويلجأ أحيانا إلى الأسود الغليظ لكتابة أسماء الترجمين[51]، وتكتب الأبواب باللونين الأحمر والأزرق[52] ، ولاشك أن استعمال الألوان في المخطوط دليل على البعد الجمالي في شخصية النساخ وطبيعة الوراقة العربية عموما والمغربية خصوصا.

د = الرجال

أقصد بالرجال هذه الطبقة الكبرى من الأناسي التي تشكلت حول المخطوط تأليفا ونسخا وشراء وقراءة وتحبيسا وشهادة على التحبيس واستلاما له ومحسنين وموظفين بالخزانة وغير أولئك من هذه الطبقة الرفيعة من الرجال التي كانت حاضرة في أي مرحلة من مراحل صنع المخطوط أو تداوله، والفهرست الذي بين أيدينا يضعنا أمام جمهرة كبرى من الرجال الذين ارتبطت شهرتهم بقيمة المخطوط أو ذيوعه وانتشاره؛

ودون إحصاء أسماء المؤلفين الواردة أسماؤهم، وهو ما صنعه الأستاذ عبد السلام البراق، فإن وقوفنا فقط عند المخطوطات التي ورد منها أكثر من نسخة يوقفنا على المؤلفين الذين حظوا بالقبول في المجتمع العلمي المكناسي على الأقل نذكر منهم على سبيل المثال ليس غير: الزمخشري ومؤلفه الكشاف، والنيسابوري ومؤلفه الكشف والبيان في تفسير القرآن، والسفاقسي وكتابه المجيد في إعراب القرآن، والرازي وكتابه مفاتيح الغيب، والقسطلاني وكتابه إرشاد الساري، والبخاري وصحيحه، ومسلم والجامع الصحيح، وأبو داود وسننه، وعياض وكتابه الشفاء، والغزالي وكتابه الإحياء، والمرادي القيرواني وكتابه اختصار تنبيه الأنام، وابن شاس وكتابه الجواهر الثمينة، والأجهوري المصري المالكي وكتابه شرح على مختصر خليل، والتنبكتي، والزرقاني، وابن رشد الجد وكتابه المقدمات الممهدات، والرعيني وكتابه مواهب الجليل، وابن عبد البر وكتابه الاستيعاب في معرفة الأصحاب وغير ذلك...

كذلك يوقفنا هذا العمل على مجموعة كبرى من النساخ الذين ساهموا في إشاعة المخطوط وتداوله، وقد قد أفرد السيد عبد السلام هؤلاء النساخ بكشف يحفظ أسماءهم ويشجع على البحث عن بيوغرافيتهم لرد بعض من الجميل لهم على ما صنعوه[53] خاصة أن بعض هؤلاء النساخ كانوا

يقومون بعملهم انطلاقا من اعتبارات نظرية وعملية كما يشهد على ذلك نظم ناسخ بعدما فرغ من نسخ مخطوط:

لقد أتممته حمدا لربي على ما قد أعان من الكتاب
ليدع الله ربي من رآه بمغفرة وتجزيل الثواب
فقد أيقنت أن الخط يبقى وتبلى صورتي تحت التراب[54].

فهجوم البلى على الصورة الإنسانية وتمنع الخط عن ذلك وخلوده، ورغبة الناسخ من أن لا ينقطع عمله بعد موته، من أسباب تحرك بعض النساخ للقيام بهذا العمل النبيل[55]، مما يبرز الدوافع الإيمانية العميقة التي كانت وراء هذه الثروة العلمية الغزيرة التي تركها لنا الأسلاف.

وقد أفرد السيد عبد السلام ناسخا بترجمة وافية، وهو عمل جدير بالإتمام.

لكن لعل الفضل الأكبر بعد المؤلفين هو لهذه الزمرة من الناس التي عملت على تحبيس المخطوطات على الخزائن والمساجد والزوايا وعلى طلبة العلم، بل وأحيانا وقتت للمخطوط زمانا معينا ومكانا مخصوصا كما نجد مع الرسالة القشيرية التي حبست على المسجد الأعظم بمكناس لتقرأ في الظهر والعصر على الكرسي الذي بباب الشراطين الذي يخرج لسوق العطارين[56]. والجزء الثاني من الجامع الصحيح الذي حبس على مسجد حي الرياض في ثلاثة أوقات؛ صلاة الظهر وصلاة العصر بعد هبوط الأعلام، وبعد صلاة المغرب بساعة[57] وكذلك جزء من الجامع الصحيح حبس على المسجد الأعظم بمكناس ليقرأ بعد الفراغ من قراءة الحزب بالكرسي الذي أمام المحراب[58]، وجزء من الجامع الصحيح حبس على مسجد الصابة ليقرأ على كرسي المسجد إثر صلاة الصبح بعد الفراغ من الحزب وبعد قراءة تفسير الإمام الثعالبي[59]. ونظرة في هؤلاء المحبسين نجد أن أكثر من يظهر في الفهرست شخصان أحدهما السلطان سيدي محمد بن عبد الله والآخر المحسن عبد الكريم بناني ومعهما نجد أسماء قواد وطلبة وعلماء ونظار[60] ومخطوطات حبست دون أن يعرف لها محبس. لكن المنصف العدل لا يجد سوى الإقرار بالدور الكبير الذي قام به ملوك المغرب على امتداد التاريخ بتحبيس المخطوطات على المساجد والخزائن وعلى طلبة العلم؛ ويبرز لنا الفهرست دور الدولة السعدية في أشخاص أحمد المنصور السعدي الذي جمع أكبر مكتبة ضخمة في تاريخ المغرب[62] والسلطان ابن فارس عبد الله بن أحمد المنصور السعدي[63] والسلطان زيدان بن أحمد المنصور السعدي[64] الذي انتهت خزانة كتبه إلى الإسكوريال[65] والسلطان أبو محمد عبد الله الغالب السعدي[66]، ودور الدولة العلوية في أشخاص السلطان محمد

بن عبد الله العلوي، والمولى علي بن إسماعيل[67]والسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام العلوي[68] والمولى المستضيء بنور الله العلوي[69]، وليس هذا سوى غيض من فيض اعتناء الملوك المغاربة من المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين والسعديين إلى العلويين بالمخطوطات وكأنهم كانوا يأملون أن يزع الله بمحبتهم للعلم وأهله ما لا يزع بغيره...

. عوارض أو هادم المخطوطات

أقصد بالعوارض ما يطرأ على المخطوطات من خروم وبتر وتمزيق وقد تشكلت حول هذا الأمر ثقافة معينة تعرف بالحيوانات التي تشكل أعدى أعداء المخطوط كما تعرف بالأدوية والأعمال التقنية التي تنجد المخطوطات: فمن الحيوانات نجد الصراصر وهي حشرات صغيرة تتغذى على سطح الورق وكعوب المخطوطات[70]، والفطريات وهي "نباتات دنيئة ...يرتبط نشاطها بالطقس ...[تؤدي إلى] تبقعات في صفحات المخطوطات"[71]، ودودة الكتب وهي"حشرات صغيرة مدمرة للمخطوطات وتتسبب في الأنفاق والثقوب العميقة التي نجدها في هاته الأخيرة"[72]، والقوارض وهي "مجوعة الآفات الحشرية التي تحدث قرضا كاملا لأكثر من ملزمة في المخطوط..."[73] ، وقمل الكتب وهي "حشرات صغيرة تتغذى على سطح الورق واللاصق النشوي"[74]، والنمل الأبيض وهي "حشرات صغيرة تحفر أنفاقا وثقوبا في المخطوطات بتأمين تغذيتها"[75]. والأرضة وهي "حشرات صغيرة تحفر أنفاقا وثقوبا في المخطوطات لتأمين تغذيتها"[76] ويبدو أن حظ الأرضة من مخطوطات خزانة الجامع الكبير كان كبيرا كما أبرز لنا ذلك السيد البراق فنجد قصيدة جلها مأكول بالأرضة كما نجد مخطوطا صعب القراءة بسبب تآكله بالأرضة وكأن الأرضة محمومة بخرم المخطوطات وأكلها كما يتجلى بياض الفهرس[77]، كل ذلك يذكرنا بما قيل بصدد ثروات خزانة القرويين المتآكلة بواسطة الأرضة: "الذي يدخل القرويين يسمع العث وهو يلتهم الكتب"[78]، وإن كان هدم مخطوطات الخزانة من تضافر عوامل أخرى؛ من محو[79]وبتر[80] وتمزيق[81]وقد تشكلت بسبب هذه الظاهرة صناعة علاج المخطوطات بالأدوية من مثل سقي الكاغد بمادة غروية[82]، وكذا صناعة الترميم حيث كانت توجد محترفات خاصة بترميم المخطوطات لـ"إعادة الأثر إلى شكل أقرب ما يكون إلى شكله الأصلي قبل إصابته"[83]وهناك مخطوطات في خزانة الجامع الكبير رممت[84]كما ينبؤنا بذلك الفهرس. كما تشكل تقليد أقرب إلى الأسطورة لحماية المخطوطات وعلاجها حيث كانت المخطوطات ترقى بعبارة ياكيكتج وهي عبارة كان المغاربة

يضعونها "في المخطوطات دفعا للأرضة والحشرات المضرة بالمخطوط[85]كما كان القدماء يقومون بتبخير الكتب بالهدهد لاعتقادهم بأن "التبخر بأعضاء الهدهد وريشه يقتل الأرضة"[86].

2 . لقد قلما في عرض سابق عن هذا الكتاب عندما صدرت طبعته الأولى إن خزانة الجامع الأعظم بمكناسة الزيتونة منجم غني، ففضلا عن المخطوطات والمجاميع التي يحتويها فإن ما بها من مخطوطات لا يزال مؤلفوها مجهولين وعناوينها مجهولة قد تكشف عن مفاجآت مستقبلية، ومن يدري فلعل ما يقوم به الأستاذ البراق من نبش وبحث وتنقيب دؤوب أن يكشف لنا عن مخطوطات جديدة لم يتم فهرستها بعد. وفعلا فإن المجهود الذي قام به السي عبد السلام قد كفانا اليوم هذه المؤونة وأصبحت مخطوطات الخزانة مكشوفة إلا النادر الذي لا يكاد يذكر.

لكن على الأقل هناك ظواهر يقدمها لنا الفهرست وهي جديرة بالنظر نذكر منها:

ظاهرة المخطوطات النادرة، فمن نوادر خزانة الجامع الكبير: بشائر الفتوحات والسعود في أحكام التعزيرات والحدود لأبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن أبيس بركات، تلخيص شرح تنقيح الفصول لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر المسطاسي الفاسي وهو مما تنفرد به الخزانة، شرح الأحكام لابن صاحب الصلاة محمد بن حسن بن محمد بن عبد الله بن خلف الأنصاري الملقي المتوفى سنة 609 هـ ، قاله عبد الهادي التارزي إنه غير موجود على اليابسة إلا في مدينة مكناس، كتاب النكت في شرح البخاري المنسوب خطأ لابن السبكي وقد حقق الأستاذ عبد السلام انه لأبي القاسم اسماعيل بن محمد التيمي الإصبهاني. شرح الجامع الصحيح للبخاري بأقوال العلماء واختلافهم في ذلك وتلخيص من أقوالهم لابن بطال المغربي المالكي، والتوسط بين مالك وابن قاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل المدونة لقاسم بن خلف بن عبد الله بن جبير الجبيري الطرطوشي، وقد حقق أخيرا، قطعة من كتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيبب، عيون الأدلة لابن القصار، ومنها الماء المعين في شرح المرشد المعين، وان كان مطبوعا مطبوعة حجرية، وهو للحمومي، والحوض المورود في أرجوزة ابن رشد، للرقعي احمد الحساني، كما أخبرني بذلك الأستاذ عبد السلام البراق الذي أوقفني مشكورا على بعض نوادر مخطوطات الخزانة.

= ظاهرة انتشار المخطوطات التعليمة، فالفهرست يحوي حقا مخطوطات لها قيمتها العلمية الكبرى، لكن متصفح هذا العمل لابد أن يلاحظ سيادة المخطوطات التي كانت وظيفتها تعليمية بالأساس، فنجد كثرة المختصرات والتلاخيص والشروح وبخاصة على مختصر خليل والحواشي والمجاميع والتقاييد والنكت والتخميسات والمنظومات كما نجد التعاليق والمجموعات والتشطيرات،

ولا غرابة في ذلك في مؤسسة كانت ملحقا للمسجد الأعظم ومخطوطات أكثرها محبس على طلبة العلم.

ظاهرة "المخطوطات الرحل"، إن صح هذا القول، فهناك مخطوطات بالخزانة رحلت إليها من جهات أخرى من مثل نسخة من فتح الباري التي حبست في الأصل على مسجد قصبة الرباط[87]، وجزء من المحرر الوجيز لابن عطية الذي كان محبسا في الأصل على خزانة القرويين[88] ومخطوط الفتوحات المكية الذي كان محبسا في الأصل على مسجد رياض أبي العباس السبتي بمراكش[89]، والجزء الأول من منهاج المحدثين الذي كان محبسا في الأصل على مسجد أبي العباس السبتي بمراكش[90]، وكذلك مخطوط الإشراف على مذاهب العلم لابن المنذر المحبس في الأصل على مسجد أبي العباس السبتي[91].

ظاهرة بعض المخطوطات التي حظيت بشكل من أشكال القداسة من غير المصحف الشريف؛ فهذا مخطوط لما فرغ منه مؤلفه طاف به أسبوعا[92]وهذا مخطوط أنجز برواق الرياضة من الجامع الأزهر[93]، وهذا مخطوط يحمل معه تفريج الهم وجلاء الكرب[94]، وهذا مخطوط ينصح بقراءته لكل من "أحس بضعف في إيمانه أو داخله شك أو عيب في اعتقاده"[95] وهذا مخطوط نسخ في القدس[96] وغير ذلك من المخطوطات التي تكشف عن منزلتها الاستثنائية عند المحبين لارتباطها بأماكن أو أشخاص أو تجارب روحية خاصة وغير ذلك. ولا غرابة في ذلك داخل ثقافة تشكل حقلها الكبير حول المقدس وبفضله.

وأخيرا، فإن هذا الفهرست الذي غاص بنا في عمق الذاكرة المغربية بعامة والمكناسية بخاصة[97] والذي أتحف به الأستاذ عبد السلام البراق الساحة الثقافية المغربية والعربية يحمل من بصماته الكثير؛ فقد استخرج مخطوطات من خروم[98]، وقدم اقتراحات كثيرة عندما يكون المخطوط مجهول المؤلف، وقدم تصحيحات لتواريخ[99] ونبه[100]وذكر[101] وقدم تعليقات أضاء بها بعض ما غمض فأبان وأوضح [102] ولايزال يقوم بذلك وأكثر لإغناء الطبعة الثانية من الفهرس، كما قذف بنا إلى قلب مدينة مكناس نشم رائحة دروبها الضيقة ونتنفس غبار حصائر مساجدها العتيقة ونستجلي بعضا من تقاليدها العلمية التي عرفت بها، ولولا أن خزانة الجامع الأعظم تعرضت عبر تاريخها لضروب من النهب أو الإتلاف لكنا أمام ثروة من المخطوطات عزيزة المنال[103]، ولله الأمر من قبل ومن بعد....

الهوامش :

1. نشر الفهرس الذي أعده عبد السلام البراق محافظ خزانة الجامع الكبير بعناية وزارة الثقافة سنة 2004
2. د. أحمد شوقي بنبين ود. مصطفى الطوبي "معجم مصطلحات المخطوط العربي المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي الداوديات مراكش الناشر الخزانة الحسنية الرباط ط 2 مزيدة ومنقحة 2004 ص276
3. عنوان المقالة "ما المخطوط؟" مطبعة الوراقة الوطنية الحي المحمدي الداوديانت مراكش صص 13. 20.
4. د. أحمد شوقي بنبين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب ترجمة د. مصطفى الطوبي نشر الخزانة الحسنية المطبعة والوراقة الوطنية مراكش ط1، 2003. ص 26
5. الشيخ عبد الحي الكتاني: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب ضبط وتعليق د. أحمد شوقي بنبين ود. عبد القادر سعود ص 106 = 107
6. المرجع السابق ص 82 = 83
7. المرجع السابق ص 102 .
8. الفهرست انظر على سبيل المثال صفحات 15 ، 16، 269 ..
9. الفهرست انظر على سبيل المثال ص 26
10. الفهرست ص 19 .
11. الفهرست ص18.
12. الفهرست ص64.
13. الفهرست ص ص 46، 47، 79..
14. الفهرست ص ص 47، 203
15. الفهرست ص 200 .
16. الفهرست ص 211.
17. الفهرست ص 187.
18. الفهرست ص 100.
19. الفهرست ص 102.

20. الفهرست ص 329

21. الفهرست ص 272

22. الفهرست ص 140.

23. الفهرست ص 270.

24. الفهرست ص 177

25. الفهرست ص 330

26. كما كتب فضيلة الأستاذ بنبين على هامش هذه المادة العلمية الذي تفضل مشكورا فراجعها.

27. مرجع سابق ص 14.

28. مرجع سابق ص 115.

29. الفهرست نفس ص.

30. الفهرست ص 163 و ص 329 .

31. مرجع سابق ص 91 .

32. الفهرست ص ص 308 ، 314.

33. الفهرست ص 95.

34. المرجع السابق ص 97.

35. بنبين تاريخ خزائن الكتب بالمغرب ص 203

36. المرجع السابق ص 99 ويذكر لنا الأستاذ بنبين أن أصناف الخط المغربي: القيرواني، الفاسي، القرطبي، التنبكتي، وبعد تفكك الأمبراطورية الموحدية وبعد الغزو الاسباني ظهرت أربعة ضروب من الخط المغربي : الخط التونسي، الخط الجزائري، الخط السوداني، الحط الفاسي كما يذكر بنبين خطوطا توجد بجانب الخط المغربي وهي الخط السوسي والخط البدوي والخط الصحراوي . ومن قواعد الخط المغربي : توالي الحروف واحترام علامات الوقف. نفس المرجع والصفحة

37. المرجع السابق ص 100.

38. المرجع السابق ص 229 .

39. المرجع السابق ص 30 .

40. المرجع السابق ص 31.

41. المرجع السابق ص 322 .

42. الفهرست ص ص 34، 299...

43. الفهرست ص ص 14، 15...

44. الفهرست ص ص 15،16، 18.

45. الفهرست، ص 299 .

46. الفهرست ص 138.

47. الفهرست ص ص 52، 300، 304...

48. الفهرست ، ص 195.

49. الفهرست ص 200.

50. الفهرست ص 193.

51. الفهرست ص 335 .

52. الفهرست ص 92.

53. أخبرني الأستاذ البراق أنه أنهى جردا بأسماء النساخ والمحبسين وأنه سيلحقه بالطبعة الثانية من الكتاب...

54. من الشعر الجميل الذي يمكن أن يذكر هاهنا بيتان كتبهما فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد شوقي.

55. بنبين على هامش هذه المادة العلمية :

وما من كاتب إلا سيبقى ==== ويبقى الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بخطك غير شيء ==== يسرك في القيامة أن تراه

56. الفهرست ص 177.

57. الفهرست ص 90.

58. الفهرست ص 96.

59. الفهرست ص 79.

60. الفهرست صص 68، 79..

61. الفهعرست ص 54، وبنبين تاريخ خزائن المغرب ص 75 .

62. الفهرست ص 100 .

63. الفهرست ص 90.

64. يراجع في هذا الصدد، "العلاقات المغربية الاسبانية إثر اختطاف خزانة الأمراء السعديين" ضمن "دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي" مرجع سابق وبخاصة ابتداء من صفحة 180.

65. الفهرست ص 211.

66. الفهرست ص 199.

67. الفهرست ص 88.

68. الفهرست ص 75.

69. معجم مصطلحات المخطوط... مرجع سابق ص 185

70. المرجع السابق ص225.

71. المرجع السابق ص142.

72. المرجع السابق ...ص 244..

73. المرجع السابق ص243.

74. المرجع السابق ص 242.

75. المرجع السابق ص 27.

76. الفهرست صص 241، 237، 252، 258، 270، 336...

77. بنبين، تاريخ خزائن المغرب ص 175.

78. الفهرست ص 134، ص 135..

79. الفهرست ص 24.

80. الفهرست ص 335.

81. معجم مخطوطات، مرجع سابق ص69.

82. معجم مخطوطات ... مرجع سابق ص 54.

83. الفهرست ص 23 .

84. معجم مخطوطات مرجع سابق ص339 .

85. المرجع السابق ص 323.

86. الفهرست ص 102.

87. الفهرست ص 54.

88. المرجع السابق ص 187.

89. الفهرست ص 122.

90. الفهرست ص 211.

91. الفهرست ص 194.

92. الفهرست ص 195.

93. الفهرست ص 182.

94. الفهرست ص 332.

95. الفهرست ص 164.

96. تجدر الإشارة هاهنا إلى أن مقر الخزانة قد تحول من المدينة القديمة بحذاء مسجد الجامع الكبير إلى بناية حديثة بالمدينة الجديدة.

97. الفهرست ص 292

98. الفهرست ص 307

99. الفهرست ص 321

100. الفهرست ص 326

101. الفهرست صص217، 220*

102. يذكر عبد الحي الكتاني في كتابه النفيس" تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب" مرجع سابق، أنه اطلع في خزانة الجامع الأعظم على مخطوطات لا يجد لها الباحث أثرا بالخزانة اليوم*